الصدام العنيف بين الرسول واليهود في المدينة

ظلّ الرسول ﷺ، على الرغم من الموقف غير الودّي لليهود تجاهه، يأمل بأنهم سيكونون الملبين لدعوته والمصدِّقين لنبوءته، إذ أنهم أصحاب الكتاب السماوي الأول وأتباع النبي موسى الذي جاء هو ليُتَمِّم رسالتَه. ولا تزال كلمات ورقه بن نوفل تتردد في مسامعه يوم جاءته خديجة تستفسر حول ما نزل على محمد من وحي، حيث قال: " أبشري إنه الناموس الذي نزل على موسى". كذلك كان كغيره من العرب يستمع إلى القصص التي تتردد على لسان أحبار اليهود والكُهّان حول قرب ظهور نبي في بلاد العرب، وإذا كانت كلمات الراهب " بحيرا" المحذِّرة لعمه أبي طالب من خطر زعماء اليهود عليه يوم قدم إليه مع عمّه وهو لا يزال في الثانية عشرة من عمره تضيء له بعض الإشارات الحمراء على درب علاقته باليهود، فإنه ظلّ واثقاً أنه سيستطيع اكتسابهم إلى جانبه بمجرد أن يلتقي بهم ويشرح لهم أسس دعوته. وقد اهتَمَّ أن يزيل أي سوء تفاهم معهم يوم سألوه بعد هجرته إلى المدينة إذا كان يقصدهم بقوله تعالى "وما أوتيتم من العلم إلا قليلا" على أثر ما طرحوا عليه من أسئلة لقنوها لوفد قريش قَصْدَ اختباره ونزول سورة الكهف(١).

ومما زاد من أمل الرسول أن الذين تقبّلوا دعوته من خارج مكه كانوا من سكان المدينة المجاورين لليهود والمتأثرين بما يسمعون منهم عن النبي المنتظر، كذلك موقف اليهود السلمي من المسلمين الذين هاجروا إلى يثرب بعد بداية نشر الدعوة في المدينة.

كان عدد اليهود في المدينة يصل إلى عدّة آلاف، وشكّلوا الطبقة الأرستقراطية الغنية صاحبة الأرض الزراعية والكروم المثمرة، فهم سكان المدينة الأصليون، وقد قدموا إليها واستوطنوها في القرن الأول للميلاد، وقد عمل أبناء القبائل العربية الذين قدموا إليها فيما بعد في أرض اليهود وكانوا تابعين لهم (٢).

لكن الوضع السياسي يوم مقدم الرسول إلى المدينة كان قد تغير إذ لم يعد اليهود يحظون بالمركز الرئيسي الذي كان لهم، وإنما كانت الزعامة والقيادة في المدينة من حظ قبيلتي الأوس والخزرج وكانت القبائل اليهودية ترتبط بعهود واتفاقيات مع هذه القبائل العربية (٣).

رغم المحاولات الجادة التي بذلها الرسول للتقرب من اليهود طوال الأشهر الأولى لوجوده في المدينة إلا أنّ هذه الجهود لم تثمر وظل زعماؤهم على موقفهم الرافض لقبول دعوة محمد والتسليم بأنه نبي مرسل (٤). وكان موقف اليهود المتحدِّي للنبي واضحاً في حادثة موت نقيب بني النجار "أبو أمامة" حيث قالوا ساخرين ناكرين كونه نبيّا: "لو كان نبيا لم يمت صاحبه" وقد

أجاب الرسول على قولهم هذا: لا أملك لنفسي ولا لصاحبي من الله شيئاً (٥).

هكذا وصل الرسول إلى اقتناع تام أنّ تسامحه مع اليهود ومحاولات التقرّب منهم لن تجديه (٦) واتّخذ القرار الحاسم ولكن المتروي بمواجهة اليهود وتحدّيهم.

أول ردّ فعل مُتحدّ اتّخذه كان اتّخاذه الآذان ليدعو به المسلمين للصلاة، وكان أول مَقْدَمه للمدينة قد همّ باتخاذ البوق على طريقة اليهود، وبعدها فكّر باتخاذ الناقوس على طريقة المسيحيين (٧)، ثم تلا هذه الخطوة بأخرى كانت جَعْله يوم الجمعة يوم صلاة عامة على غرار "السبت" عند اليهود، ولكنه سمح للمسلمين بالإنصراف إلى أعمالهم الدنيوية قبل أداء الصلاة، وبعدها. كذلك أضاف إلى صوم يوم عاشوراء الذي اقتبسه عن اليهود صوماً آخر يستغرق شهر رمضان بكامله (٨). ثم كانت قصة إسلام "عبد الله بن سلام" (٩) أحد أحبارهم الكبار وما تركته هذه الحادثة من أثر بين اليهود، ثم اتّخاذ الرسول الكعبة بدلاً من بيت المقدس قبلة للمسلمين يتوجهون إليها ساعة الصلاة.

كل هذه الخطوات على تباعدها الزمني تركت أثرها على تأجيج النزاع بين الرسول وأحبار اليهود، الذين كانوا يرون أنفسهم متفوّقين في العلم على كل مَن يحيط بهم من غير اليهود وبضمنهم الرسول (١٠). فهم "أبناء الشعب المختار" (١١) وهم

" أولياء الله من دون الناس " (١٢) " وأبناء الله وأحباؤه " (١٣)، وقد تقبّل الرسول هذه الدعوى بادئ الأمر (١٤) ، لكنه إذ وجد أن لا أمل في اكتسابهم إلى جانبه، ناصبهم العداء وحمل عليهم حملة شديدة .

لقد اجتهد الرسول أن يقطع أية صلة بين المسلمين واليهود والنصارى، وعمل جاهداً على تأكيد أسبقية الإسلام بأن ربط بين الإسلام وإبراهيم الخليل على اعتباره مؤسس الدين الإسلامي، فإبراهيم هو الذي أسس الكعبة المقدسة لإبنه إسماعيل، وأكد واجب الحج إليها ، وإبراهيم لم يكن إلا مسلماً حنيفاً ، كما اهتم الرسول أن يؤكد على الطابع العربي للدين الجديد (١٥) ، حتى أننا نستطيع أن نجد الدين الإسلامي يعتمد في تطوّره على دعامتين أساسيتين هما :

أ ـ أن إبراهيم الخليل هو المسلم الأول والمؤسس الحقيقي للدين الإسلامي .

ب ـ التأكيد على الطابع العربي للإسلام (١٦) .